

مفكرو القرن الماضي: حضور الذات وغياب الوعي الجمعي

4. محمد بن ردة العمري

كان لتجذر الخطاب الديني في فكر الشعوب الإسلامية أثر بالغ في سيطرة هذا الخطاب على التوجه العام للأمة حين شعرت بتخلفها، فإذا كان الفراغ السياسي الذي تلا سقوط الإمبراطورية العثمانية قد أوقع كثيراً من أجزاء الدولة الإسلامية تحت وطأة الانتداب، فقد كانت الشعوب تتباكي على الدين وترى فيه الفارس المغيب القادر على استرجاع حق الأمة المسلوب.

و حين تكونت النخب الفكرية في ظل هذه الظروف - مع بدايات القرن التاسع عشر - كان الدين هو الوجهة العامة والمنطلق المهم، لكن المرحلة نفسها تقتضي التقليد والاجترار .

لقد سيطرت على مفكري بدايات القرن التاسع عشر - كرفاعة الطهطاوي ومحمد عبده والأفغاني وخير الدين التونسي - حيرة كبيرة ترددوا فيها بين استيعاب السقوط ومثالية المرجعية .

إن هذه المثالية الخيالية (من حيث الأخذ لا من حيث الأصل) حارت أمام تقدمية الحضارة الأوروبية بالرغم من تجردها من أي روح دينية ملزمة. من هنا كان من الصعب أن يتخلى مفكرو هذه المرحلة عن الخطاب الديني؛ إذ هو مكون أول من مكونات العقلية العربية .

لذا كان التوفيق هو خيار مفكري هذه المرحلة، فكل ما في العصر والحضارات المباشرة لحضارتنا من تقدمية تقبله روح الإسلام الذي لا يعارض التقدمية والحضارة .

فإذا كان الدين الإسلامي قد حث على المعرفة والعلم، وهما قوام الحضارة الغربية المعاصرة فإن الخلل يمكن في تعاطي هذا الدين لا في الدين ذاته، هنا وقعت إشكالية الانتقائية والتوفيق، فالدين في ذاته موافق لجوهر التقدمية والحداثة، بينما حال الأمة الراهن موغل في التخلف والجهل .

إن من نتائج هذا الطرح تحميل الفرد تبعات وإشكالات التخلف بعيداً عن محاولة نقد وتفكيك المكونات المعرفية السائدة، وتجاوز إشكال العقلية الشعائرية المعقدة.

وفي نهايات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ظهر فكر الاقتباس القائم على نبذ الإحياء والخروج من التقليد والمألوف، وقد كانت اللغة آلة هذه المرحلة ونقطة انطلاق مفكريها، ساعد على ذلك: الانفتاح المباشر المتقن على الثقافات الأخرى والأوربية منها على وجه الخصوص .

لقد ادرك مفكرو هذه المرحلة -كجورجي زيدان، ولطفي السيد، وقاسم أمين، مرورا بشبلي شميلي، والبستاني، وانتهاء بطه حسين، وعلي عبد الرازق- أن الحديث المباشر عن الدين وإشكالات العقلية الشعائرية يصاحبه من الإشكالات ما لا تمكن معه الدعوة المباشرة إلى الإيديولوجيات الجديدة ، فاستخدموا الأدب والتأملات النقدية سبيلاً لتمير الإيديولوجيات الجديدة وتكوين المشاريع التنويرية .
واللغة - في هذه المرحلة- هي جسر العبور، وحوها كانت تدور أغلب الأطروحات: من الدعوة إلى تحديث اللغة حتى الدعوة إلى استبدالها ..ومن الدعوة إلى نقد الأدب والثقافة إلى إعلان موتها..

إن المشكلة الكبرى التي واجهت نخب هذه المرحلة صدامها مع الفكر المغلق، والبعد عن تكوين تيارات فاعله أو مدارس منظمة؛ إذ لم يتجاوز الأمر كونه صيحات متقطعة متباعدة، لم يجمعها منطلق حقيقي واحد، رغم ادعاء وحدة الهدف، وقد تمثل فشل أطروحات هذه المرحلة في إعلان قطيعتها للتراث، وانطلاقها من بؤر فكرية وإيديولوجية متعددة، خصوصاً بعد الانفتاح المباشر على الثقافة الأوروبية.

من هنا كان النصف الثاني من القرن العشرين مرحلة مفصلية في تاريخ الفكر العربي ، نصب فيها مفكرو هذه الفترة أنفسهم للفصل في قضية القطيعة الفكرية، فقد انطلق أغلب مفكري هذه المرحلة من شعورهم بضرورة الجمع بين خطابي النهضة المتمثل في التنوير، وخصوصية الثقافة الإسلامية عبر مراحل التاريخ الإسلامي.

إن من ضرورات هذا الطرح أن يتناول الخطاب الديني بالنقد؛ مما ولد انقسامًا واضحًا - بين مفكري هذه المرحلة- في المنهج الذي يتم به هذا النقد أمن داخل التراث أو من خارجه، وبالرغم من ذلك فقد كان المجمع عليه هو الدعوة لتحرير العقل من سلطة النص، بغض النظر عن الطريقة التي اعتمدها للوصول إلى هذه التحرير.

لقد وجد أركون - مثلاً - تطبيق الدراسة العلمية طريقاً للاستقلال والتحرر من العقلية الشعائرية، فانطلق من التراث نفسه، من خلال نقد (الدوغمائية) أو الفكر السائد، فجاء مسكويه وأبي حيان التوحيدي أنموذجين اعتمد عليهما أركون في التنظير للحرية الفكرية في التراث الإسلامي خصوصاً بعد الإمام بالفكر الإغريقي.

فاتكأ أركون على القديم في التبرير لمشروعه في الدعوة لإخضاع التراث الديني للعلمية، ودعا لتسليط مناهج الدراسة الحديثة (الألسنية - الاجتماعية - التاريخية ... الخ) على التراث باختلاف مستوياته لكشف أسباب الانغلاق التاريخي، ومع ذلك فالممارسة الفكرية لأبي حيان أو مسكويه لا تخضع لنفس الظروف التي يخضع لها المجتمع المعاصر، وفرق بين الدعوة للتغيير الجذري دون قيود أو خصوصية، وبين الدعوة إلى تحديث هذا الوعي والدعوة لاستمراره .

دعا أركون إلى تطبيق المنهج التاريخي - المرحلية التاريخية - على التراث الإسلامي منظرًا لذلك بما خضعت له المسيحية من مراجعة، ومحتجاً بأن السيكولوجيا الدينية مشتركة، فجمعه بمفكري التيار الإسلامي تشويه الأيديولوجيات، وإلقاء اللوم على البنية الاجتماعية في تحجيمها المشاريع الفردية، لا أدري كيف تم هذا الاتفاق؟! مع أنه قام في روعنا - كقارئين للمشروعات الفكرية - الاختلاف الكبير بين أهداف ومنطلقات كلا المشروعين!! ولا سيما حين ندقق النظر في التسميات والمراحل الزمنية .

وفي الوقت الذي دعاء فيه أركون إلى دراسة التراث بأدوات عصرية مباينة للتراث نفسه، دعا محمد عابد الجابري إلى نقد التراث بأدوات الذاكرة التراثية نفسها، فجاء مشروعه تجريدًا للعقلية العربية، مع إخضاعها للتأمل والمراجعة، لكنه وقع في مأزقين:

- أحدهما أن مراجعاته للتراث مع دقتها وسعتها خلت من المواءمة بين الواقع العقلي والطور المعرفي.
- أما المأزق الآخر فهو طبيعة العقل التي تناو لها بالنقد والمراجعة، فقد فصل بين العقلية العربية والإسلامية في مراجعاته، رغم أن تكوين العقلية العربية لا يخالف تكوين العقلية الإسلامية، خصوصًا حين نتحدث عن التراث بعمومه، وندعو إلى نهضة حضارية لا إلى مشاريع قومية، ودعوة محمد عابد الجابري وإن اتجهت إلى التراث وإحيائه من خلال تجريده ونقده، إلا أنها فتحت بابًا للقومية، وخصوصية الفكر العرقي، فلكل طائفة ولكل عرق الحق في ادعاء خصوصية عقلية أسهمت في بناء الفكر الإسلامي بعاملته، وبالتالي فليس هناك فكر إسلامي خالص، على ما نعرفه اليوم من مصطلح (إسلامي)، ثم ألم تذب العقلية العربية في العقلية الإسلامية في مرحلة تاريخية معينة من تاريخ الفكر الإسلامي؟

لقد شغل المفكرون في القرن الماضي بالبعد الشخصي أو الفردي، وأصبحت خطابات النهضة خطابات للتنافس
لا للتنامي، ساهم ذلك بشكل مباشر في البعد عن الحدث اليومي والحياة العامة، مع الاكتفاء بالتنظير دون
لعمل على إحداث تغيير جذري للوعي، الساقط في أتون اللاوعي !!